حول كتاب « لورنس كما عرفته »

ماذا حدث سنة ١٩١٦ ؟

بقلم عبدالحميد حسن

اطلق فيصل بن الحسين سنة ١٩١٦ صرخته المشهورة :« طـاب الموت يا عرب » . وانطلقت بعد هـذا قبائل من البدو ، وفصائل مـن جيش نظامي ، ورصاص وقنابل وديناميت ، ثم انقشع الدخان فاذا قوم نزلـوا وقوم ارتفعوا ، وما كان موصولا انقطع ، وما كان واحدا اصبح كثيـرا مجزءا .

ماذا حدث في هذه الثورة ؟ وكيف يمكـن تفسيره ؟

أكثر المواد المكتوبة عن هذا الموضوع ، مكتوب بالانكليزية ، وهومن جملة التاريخ البريطاني ، لا التاريخ العربي . اذ الفرق بعيد بعيد مـن يكتب تاريخه ومن يكتب تاريخ غيره ، الاول يكتب من الداخـل والثاني يكتب من الخارج . لقـد كانت فورة العرب بالنسبة للانكليز جزءا من الحرب العالميـة الاولى . داخلة ضمـن استراتيجيتهم في المنطقة،وضمن خططهم للنجاح في هذه الحرب « العالمية » لا القومية . وهذا لـه جذور سياسيـة واجتماعية ، واصول في حوادث سابقـة تصل الى اجدادهـم وأجداد اعدائهم الالمان . ولهذا لا نجـد في وثائق وزارات الحـرب والخارجيـة والمستعمرات البريطانية ما يشير الى حوادثها بوصفها احد نواتج حربهم الكبرى . فيجب الا نتوقع وجود القصـة كاملـة فيهـا، او صحيحـة من وجهة النظـر التي نقف عندهـا .

ان فكرتهم عن لورنس مثلا ، وعن الثورة العربية الكبرى ، فكـرة رومانسية لسوبرمان ابيض غربي سحر الشرق بدلا مـن ان ينسحر به، ففاض في مجاهل صحاراه ، ونفخ في اعاريبه روحـا تخلوا عنهـا منـذ مئـات السنين ، فثاروا ، وطردوا الترك بقيادتـه ،او برعايته ، وانفتحوا على العالـم الحديث عن طريق الانتداب والوصاية والتجزئـة (تقسيم العمل بين الدول المتحضرة !) صحيح انهـم سببوا ويسببون للعالم الغربي من المنغصات اكثر ممـا ينالهم على يده ، ولكـن مع مرور الزمـن ، وتمكـن « الحضارة » منهم سيتروضون ، ويبدأون بالحياة. هذه الفكـرة نجدهـا مطروحـة حتى في بعض الكتب العربية المعتمدة، وهي جزء من التسلل الثقافي الاقوى الذي يصعب التخلي عنه بيـن ليلـة وضحاهـا .

وهو ، عند محاولة تبني وجهة نظر عربية ، ضابط مخابرات تسلل، كالعادة ، بلباس الحمل يحمل معولا للتنقيب عـن الآثار ، الى ان حان وقت عمله في مهمته فتقلـد رتبة الكولونيل ووضع خروج الذهب علـى بعيره ، فاستغل اثره البراق مضافا الى الشعور القومي النامـي في البلاد العربيـة وفي زعمائها فنفخ في ثورتهم الى ان انتصرت على الترك، فتنحى ليترك للاسد البريطاني وشركاه ابتلاع الغنيمة واقتسامها ، مـع القاء بعض الفتـات الى شريك خفي لم يكن بالحسبان هو الصهيونية.

وممـن يأخذ بهذه النظرة صبحي العمري في كتابه الجديد:«لورنس، كمـا عرفته » . وفيه يحاول ان ينفي عن لورنس ، الشخص ، كل ذلـك الاثر الفعلي في زعمـاء الثورة ومجريات امورها . وينزل به الـى درك ضابط الارتبـاط الصغير المكلف بمهمة رسمتهـا لـه قيـادة بريطانيـة متمرسـة لينفذهـا عنـد جماعـة كانـوا من حيث التنظيم والقيـادة أرعى من ان يتأثروا به ، وهذا حق . ويحاول ان ينفي عن الثورة اكثر آثار التدخل الاجنبي ، خصوصا من حيث التخطيط المسبق والغايـة النهائيـة ، وهذا امر ما زال موضع تساؤل .

لقـد ارتبط لورنس بمهمة نجحت نجاحا كاملا ، فـان كـان دوره بسيطـا او رئيسيـا فهـو ليس اكثر من فرد ، ممثل . المهم هـو الدور الذي أداه ، أو ارتبط باسمه ، انه رمز لعلاقـة الشرق بالغرب، لقـد نقل الذهب والمؤن والاوامر والطلبات ، وكان بزيه العربي وجمله رمزا للذرائعية الغربيـة ومرونتهـا في التسلل ، مقابـل بساطـة العـرب وصلابتهـم .

والكتاب ان لـم يفـد في التفسير ، فهـو ذو شان كبيـر عـند محاولة اعادة بنـاء ما حدث من جديد . فالمؤلف شاهـد عيـان تتوفر فيه اقسى الشروط التي تتطلبهـا الشهادة التاريخيـة العلمية . فهـو ليس بحاجـة الى تبريـر قضايـا ذاتيـة (مثل نوري السعيد)بـل ان السجـون واحكام الاعدام القياسيـة التي سجلها في تاريخ حياته تطالب غيره بتبرير ما حدث له ولامثاله . ورتبته المتوسطة في الجيش سمحت له برؤيـة الكثير بدون ان يتمكـن من التأثيـر في مجريات الاحـداث. وكونه عسكريا دقيقـا يروي كثيراً من الحوادث التي لم يطلع عليها او يفهمهـا الا العسكريون . بالاضافة الى خاصة الوضوح والبساطة التـي تنمـو ايضـا عند مـن قضـوا حياة عسكريـة حقيقية . ولهذا نفهـم مغزى اصراره على تسمية لورنس كثيرا (برجل المخابرات) وشتان بين خصائص رجل المخابرات ورجل الحرب !

« في٢ حزيران ١٩١٦ بلغ الاميران علي وفيصل قائد المدينة تمردها على الحكومة التركية ، وفي ٥ حزيران وقع اول اصطدام مع الترك ،وفي الشهـر ذاته اعلـن الشريف حسين الثورة العربية على الاتراك ، ... وسقطت مدن الحجاز الواحدة تلو الاخرى في ايدي العرب عدا المدينـة التي كانت ترابط فيهـا حاميـة تزيد عن الفرقة (ص ٢٩)

بدايـة جيـدة

« في اواسط حزيران ، اي بعد أيام قليلة من نشوب الثورة، يقوم فخري باشا ، بهجوم على جيش علي وفيصل فيدحرهمـا .. ولقد كـان المقاتلون العرب في تلك الآونـة بدوا ومنهم المتطوعـة المنظمـون فـي

سرايا ، والبدو المجتمعون بصورة غير منظمة برئاسة شيوخهم ، وفي هذه الآونة كان الضباط والجنود المتطوعة يتواردون من معتقلات الاسر (!) كما اخذت الامدادات من الاسلحة الانكليزية بالوصول .... وعلم الانكليز بان الاتراك يهيئون قوات امدادية كبيرة لارسالها الى المدينة للقضاء على الثورة واستعادة مكة ، فازعجت هذه الاخبار الحسين كما ازعجت الانكليز (ص ٢٩)

الثورة تقوم ثم تتعثر بعد عدة ايام فينزعج الانكليز : وستنتصر وسيفرح الانكليز . الم يكن ثمة من يشك او يشكك في هذاالتحالف غير المقدس ؟

يبدو ان الشريف حسين نفسه لم يكن يشك .ومصيره المحزنشاهد على مدى خيبة امله . اما موقف اولاده فصعب جدا الجزم به . واما باقي الاشراف « وكان لهم دورهم الخطير في الثورة بسبب موقفهم الحيادي من الخصومات العشائرية التقليدية واكثرهم من لم يخرج خارج الحجاز ، لا يفهمون شيئا عن امور السياسة سوى كراهيتهم الشديدة للاتراك ، والتحرر من كل اجنبي .. لا يخطر في فكر اي واحد منهم ان يستبدل حكم الاتراك المسلمين بالانكليز غير المسلمين ، لكن ثقتهم بالحسين جعلتهم يتقبلون فكرة الاستعانة بهم للخلاص من شر الاتراك » (ص ٥٢) ماذا عن الذين كانوا « يفهمون » بامورالسياسة: الحضر سكان الشام وفلسطين ؟ كانت لهم جمعيات سرية تحمل لقب (الفتاة) حسب آخر تقاليد العصر من ايطاليا الى تركيا ، وكانوا يجتمعون ويتكلمون ويتسابقون نحو اعواد المشانق .. الخ مما هو معروف . لم تسجل الكتب من كان لهم دور في الثورة الا من كانوا ذوي صلات مباشرة بالقائمين عليها من مثل نسيب البكري وعبد القادر الجزائري (الحفيد) هذا عن المدنيين . ولكن اكبر وجود للحضر الشاميين والعراقيين في الثورة كان وجود العسكريين وخصوصا الضباط ، واكثرهم كانوا يفتدون معيشتهم في معتقلات اسر الانكليز بالالتحاق بجيش الثورة واقلهم (ومنهم المؤلف العمري) غامروا وهربوا من الجيش التركي للالتحاق بها .

هل كانت تدفعهم روح انتهازية ، كالمال مثلا ؟ لا :« فربع راتب الملازم كان يذهب ثمنا لدخان من كان يدخن منهم « بالاضافة الى خطر « قطع الرواتب والمعونات عن عائلاتهم » من قبل الاتراك . امكان الدافع استشفاف مستقبل انتصار الحلفاء وتثبيت موطيء قدم لهم في المستقبل ؟ لا أيضا : « عند قيام الثورة كان الالمان فيموقفهمالحربي الممتاز ، وكان الاتراك لا يزالون في وضع سليم بعدما طردوا الانكليز من الدردنيل ، فالتحاق الضباط ، وان كان من معتقلات الاسر او من طرق اخرى ، معناه التحاقهم بالعدو وعقاب ذلك الاعدام وقطع الرواتب والمعونات عن عائلاتهم » (ص ٥٧).

دفاع شريف من قبل المؤلف عن الذين خرجوا من معتقلات الاسر الى جيش الثورة ، يزيد من الثقة بكلام المؤلف وينفي عنه اية شبهة ذاتية خصوصا وانه التحق بالثورة عن اصرار لا عن هرب. ولكنه لا بد لا يعني اولئك الذين « خلقوا » مع الثورة بقدرة قادر مثل العقيد نوري السعيد الذي كان يقبض راتبا لا يزيد عن راتب ١٧٥ جندي او ثلاثة ملازمين ، وحاول « تطبيق » المؤلف بالذات في ثاني يوم من ايام دخولهم دمشق لاغتيال عبدالقادر الجزائري وبحضور لورنس فلما لم يستطع اضطر للجوء الى الشرطة وهي الطريقة الاقل ضمانا (ص ٢٣٣) . بل يعني اولئك الذين « استشهد منهم العشرات في ميادين الثورة ونسيت اسماؤهم وخسرت عائلاتهم المعيل الوحيد ، وتجاهلتهم الدول العربية التي بنت استقلالها على المطالبة بالحقوق التي استمدتها من تضحياتهم » (ص ٥٧) .

كانوا وطنيين لا شك في وطنيتهم ، فماذا عن وعيهم السياسي ؟

وكان الضباط على علم بان الثورة كانت قائمة على معونة الانكليز المادية . تماما كان الاتراك يعتمدون على معونة الالمان . وكما كنا نقدر بان معونة الالمان للاتراك لا تؤثر في وطنيتهم كذلك كانت معونة الانكليز لا تؤثر في وطنيتنا ... وكنا لا نعرف شيئا عن امور السياسة وخداعها . ولا يظن احد ان الضباط ، بعد التحاقهم بالثورة، اصبحوا لا حول لهم في عمل شيء، بل كان بامكانهم تغيير امورها . غير انهم كانوا واثقين بالحسين » .

بل نظن انهم اصبحوا لا حول لهم في عمل شيء . اما حادثة انهم « عندما وصلهم علم بمعاهدة سايكس بيكو تجمعوا وتقدموا الىفيصل بمضبطة انذروه فيها بانهم لا يحاربون الاتراك ليقتسم الانكليز والافرنسيون بلادهم بعد الحرب ولم يعودوا الى هدوئهم الا بعدما جاءهم رسول الحسين رضا الصبان ليطمئنهم ، وبعد صدور تكذيب صريح من قبل الانكليز » ص ٥٨ فهو انذار بعمل شيء لا عمل شيء ومما يثبت قوله « كنا لا نعرف شيئا عنامور السياسة » ان الاتفاقيةالتي نشرها لينين كانت صحيحة ،وهو لا يثبت شيئا آخر.

احد اهم الحوادث في الكتاب له علاقة بهذه النقطة ، انها حوادث لا يفهمها الا عسكري ومن هنا جاءت اهمية روايتها على لسان صبحي العمري :

في اوائل سنة ١٩١٧ « اهتم الانكليز بامر تخريبات الخط الحديدي لاعتقادهم انها من الوسائل الفعالة في ارباك مواصلات الجيش (التركي) المدافع في المدينة وعرقلة امر انسحابه منها. فارسلوا الى كل جيش من جيوش الثورة ضباطا (انكليز) يحسنون عمليات التفجير » (ص ٧٤)

وفي الاسبوع الاول من اذار سنة ١٩١٧ وصلت الى القائدالانكليزي الكولونيل نيوكمب الذي كان « متغيبا عن الوجه (وقد احتلها جيش الثورة منذ خمسة اسابيع) في عمليات تخريب ،(رسالة معها) صورة برقية مطولة مرسلة من جمال باشا الى قائد المدينة فخري باشا يبلغه فيها تعليمات صدرت من انور باشا وهيئة الاركان الالمانية تامره باخلاء المدينة فورا والانسحاب الى تبوك ثم الى معان حيثيجب اقامة خطوط دفاعية جديدة .. وقد طلب الجنرال كلايتن من الكولونيل نيوكمب ان يسعى جهد طاقته في جعل القادة العرب يقررون الاستيلاء على المدينة وتدمير حاميتها والحيلولة دون وصولها الى معان حيث تهدد ميمنة الجيش الانكليزي العامل في بئر السبع » (ص ٧٥)

كان هذا الانسحاب في مصلحة العرب ، اذ يجعل الطريق مفتوحا بين الحجاز والشام ويمكن من تثبيت الحكم العربي في دولة وحدة مستقلة صراع الاتراك مع الانكليز في فترة زمنية قصيرة اثمن منالذهب (ام هل كان هذا في ذهن قادتهم وقتذاك ؟ الم نجد كثيرين يقفون في منتصف المسافة الى غاياتهم وهم يلهثون محاولين الحفاظ على ما وصلوا اليه ؟) الثابت ان العرب الثائرين اختاروا الطريق الاسهل وربطوا مصير قضيتهم بمصير قضية الانكليز والفرنسيين ،وبمصير الترك والالمان . فبدأوا بنسف الخط الحديدي الحجازي بحيث يبدو ان الانفجارات التي صدرت من تحت هذا الخط المسكين تزيد عن مجموع ما تفجر في الثورة من ذخيرة وانفعالات ..

كان الالمان هم الذين نصحوا الاتراك بالانسحاب من المدينة لقتال الانكليز . وكان الفرنسيون يخشون هذا منعا من وصول الثورة الى سورية ، حصنهم من الوليمة . وكان الانكليز يخشون هذا خوفا من وصول الاتراك الى ميمنة جيشهم في بئر السبع (ص ٧١) . الهم هل كان العرب ، على الاقل يعرفون هذا ؟ لورنس يدعي بانه صارح فيصل بهذا والتجأ الى « نخوته » في مساعدة الانكليز بمنع الاتراك من الوصول الى الجيش الانكليزي فقبل (ص٧٥) « ولو انه قدر الوضع تقديرا حسنا لوجد ان الثورة كانت في مصلحة الانكليز اكثر مما كانت في مصلحة العرب ، انها حجزت بينهم وبين فرقتين كانتا في اليمن وعسم، وسدت في وجه الالمان امكان توغلهم في سواحلالجزيرة العربية للوصول الى المحيط الهندي، وقامت باسر فرقة .. كانت مرابطة في مكة وجدة والطائف ..والخ » (ص ٧٦)

« كان مجموع هذه القوات التركية التي جمدتها او اسرتها

الثورة .. يعادل جميع القوات التي كانت تقاتل الانكليز في جبهة سيناء ذلك الوقت ، والتي كان الانكليز يضعون امامها قوات تكلفهم من الرجال والاموال ما لا يمكن مقارنته بما كانت تكلفه الثورة من نفقات زهيدة (ص ٧٧) ارخص حرب .

* * *

ودخل الجيش العربي دمشق وتابع حتى حرر حلب وبدا ان الثورة قد نجحت نهائيا . وان دماء الشهداء لم تسل عبثا . وهل كانوا يقاتلون الا من اجل هذه النتيجة ؟

ولكن ما هي هذه النتيجة ؟

من حسن الحظ ان حرب الشرق الاوسط انتهت مع انتهاء الحرب العالمية . فكان على الانكليز ان يرحلوا الى ديارهم مشكورين . ولكنهم رفضوا بكل ادب . وتكشفت الاتفاقيات السرية وبدلا من الدولة المحتلة الواحدة جاءت اخرى هي فرنسا لم تحارب الا بمدفع جبلي واحد لتاخذ حصتها من الغنيمة . وبدا رسم الخطوط المستقيمة على الخريطة لتحديد حدود الدول (والصحراء تساعد على الاناقة في رسم الحدود اكثر من البلدان الجبلية او البحرية) ولكن كان لا بد من انحرافه تاركا بئرا من البترول هنا ،او اقلية طائفية مدللة هناك، او ارضا تحصد وتسمد تمهيدا لزرعها بفصائل انسانية جديدة على المنطقة ، ثبت ان المناخ يلائم تمركزها بوعد الهي من الاف السنين دعمه وعد سام من قبل وزير انكليزي اسمه بلفور .

يبدو ان شيئا قد جرى بصورة مغلوطة . ام ان الاتراك قد نسوا ان يتركوا لنا سياسيين مجربين مع انهم تركوا لنا ضباطا مدربين وآخرين ؟ ام لان لورنس وجماعته خدعونا ؟ مهما حاولنا ان نضرب على هذا الوتر فلن نصل الى نتيجة ان الخديعة بحاجة الى من ينخدع وهذا له اسم في القاموس من الظلم ان نطلقه على انفسنا.

لقد كانت الثورة العربية احتكاكا بين حضارتين (لا بين العرب والترك) متضادتين . احداهما نعرفها اذ نحن منها .والاخرى ملكت بالاضافة الى القوة المادية بعض القيم الشنيعة في نظرنا : الذرائعية ، والنفعية ، ويتبعها التعامل مع الاخرين على قدر الافادة منهم والغاية تبرر الواسطة ،وفيها قيم محايدة النظام والانضباط والتخطيط والتنفيذ بحزم . وهم يقولون ان هذه السجايا الحضارية مكنتهم من اكتشاف القوانين الطبيعية (العلم) ومن تسخيرها لفائدتهم (التكنيك) (فهذان جزءان من الحضارة لا كلها ، كما نصر البعض على اعتبارهما كذلك بسذاجة عند الحديث عن النكسة وعند نظم القصائد بحقها) وليس هنا المجال لمدحها فقد سمعنا عنها الكثير ولا لذمها فمشاكل العالم الان هي باختصار ازمة تلك الحضارة ، يكفي ان هذا يبرر عدم فهمنا للورنس ، ويبرر لماذا اكتشف الجيش التركي المنهزم والجيش العربي المنتصر بعد قليل ان ما حدث لهما متشابه! كان الالمان يحاربون بالترك الانكليز الذين يردون بالعرب . ولقد « استشهد » كثير من الهنود في ثورتنا في الجانب البريطاني، وكثير منا في اوروبا عن طريق تركيا (والا فما معنى سفر برلك ؟) وكثير من العرب المغاربة مع الفرنسيين .. الخ .

وقتذاك كان لينين يقوم بثورته على ذات الحضارة ، ولكنه كان يحاربها بسلاحها وكان يقوم من داخلها لا من خارجها .وقد اعتمد في ثورته على عناصر اقل من حيث العدد ، واقسم انهم كانوا من حيث الكفاءة القتالية ادنى مستوى من البدو الذين حاربوا مع فيصل (وهذا القسم لكي يقنع انصار العلم والتكنيك بانهما في الثورة بعض الشيء وليسا كل شيء . أسمعت اخبار فيتنام ؟)

كما كانت الحركة الصهيونية تعمل هناك (وبدون عسكر)فخرجت بوعد بلفور وبخريطة للمنطقة مفصلة على قياسها ويعلم الله بماذا خرجت ايضا وماذا عملت . اذ ما السبب في ان كل ما جرى في المنطقة كان لصالحها ولو لم تكن له علاقة بها ؟

هذا عن الجانب الحضاري ، القومي . اما عن الجانب الاجتماعي. فبعد ان فرض المستعمر التجزئة وهبت رياح التغير التي سادت اوروبا قبل اكثر من قرن ، اكتشفت طبقة كانت قابعة في الظل، انه ليس بالامكان ابدع مما كان . فالدول الكثيرة الجديدة بحاجة الى ملوك واعيان ونواب ورؤساء اركان ومستشارين . .كما ان طبيعة النظام الاجتماعي الذي جلبه المستعمر يحتاج الى وكلاء تجاريين وغير تجاريين ، ومتعهدي طرق ومبان وسلاح . وكان اكثر وجوه هذه الطبقة مالوفا منذ عهد الاتراك وما زال مالوفا حتى اليوم . وهي لا تختفي الا عندما « تحمى الحديدة » وتبدأ المعارك الفعلية .

اما الشعب الذي حارب في سبيل قوميته فلم ينل اكثر مما نال البدوي الذي تحدث عنه العمري في كتابه ، انتحى جانبا يعالج تنكة ظن فيها ذهبا ، فثبت له انها قنبلة يدوية نمساوية انفجرت في وجهه !

اما الذين بقوا على تربيتهم الغيبية الاصلية : اخلاق عنتروالزير، من الذين لم يستطيعوا ان ينحرفوا ولكنهم لم يفهموا ما حدث، مثل صبحي العمري نفسه ، فتابعوا القتال قدر الامكان ، مع يوسف العظمة ثم مع رشيد عالي الكيلاني، ثم في فلسطين وخرجوا اخيرا كما خرج المؤلف : باربعة احكام بالاعدام ، ثلاثة منها خرجت من النظم السياسية التي ساهموا في تثبيتها .

اعرف بدويا آخر ، حارب الفرنسيين سنة ١٩٤٤ بذخيرة هربها من تركيا وبعد ان اطلقها كلها قارب ان يحاكم بتهمة استعمال فشك « الدمدم »الممنوع . وعندما عاد الى قريته اكتشف انها ضمت مع قريتين مجاورتين الى أملاك أحد أعضاء الكتلة الوطنية ، وبحكم قضائي ، وعن طريق الشرطة . وهو ما زال حتى الان يحاول ان يفهم ، مثل صبحي العمري ، ماذا حدث خطا ، في هذه الثورات الوطنية .

دمشق — عبدالحميد الحسن

علي محمود طه

قصائد

اختارها وقدم لها

صلاح عبد الصبور

٢٥٠ ق ل

صدر حديثا
عن دار الاداب